المبحث الثاني

أهمية التعايش مع الآخر

يقول تعالى:

"وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً
وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ* إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ
وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ".

(هود: ١١٨: ١١٩)

obeikandl.com

إن وجود الآخر في خلق الله حقيقة واقعة، والتعايش معه ضرورة لا انفكاك منها، ولا اختيار فيها.

فلولا الآخر ما كانت هناك مادة:[٢٣] فالذرة تتكون من نواة بها (بروتونات) تحمل شحنات موجبة، يقابلها في مدارات حولها (إلكترونات) تحمل شحنات سالبة، وكل منهما يمثل (الآخر) بالنسبة للثاني، ومن هذه الثنائية في الذرة تتكوّن صور المادة بأنواعها المختلفة.

ولولا الآخر ما كانت هناك حياة: فعبر التلاقح بين البويضة والحيوان المنوي ـ وكل منهما يمثل (الآخر) بالنسبة للثاني ـ يتم خلق معظم الكائنات الحية؛ ولولا آخر يتغذى عليه الحي لما كانت له حياة.

ولولا الآخر لهلك الناس، وبذلك ورد الأثر[٢٤] "لا يزال الناس بخير ما تباينوا فإذا تساووا فقد هلكوا".

ويقول تعالى:[٢٥] "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ".

فقوله: "ولا يزالون مختلفين" باق على عمومه، أي مختلفين في كل شيء.

وقوله: "إلا من رحم ربك" أي أن الرحمة سواء في الدنيا أو في الآخرة فمختصة بمن فهم حقيقة الاختلاف؛ ولم يره كله تناقضا

(٢٣) بل إن المادة تتخذ ألوانها البديعة التي نراها في الكون نتيجة التعايش بين الألوان وخلطها بنسب معينة، فحتى لمسات الجمال تفتقر إلى التعايش!

(٢٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان ١١/ ٣٥٧، وذكره ابن حجر العسقلاني: فتح الباري: ١٣/ ١٦، والمتقي الهندي في كنز العمال ٣/ ٦٩٠.

(٢٥) هود: ١١٨: ١١٩.

وتضادا؛ واستطاع جني ثماره.

وأما قوله: "ولذلك خلقهم" فليس المراد منه أنه سبحانه خلقهم ليختلفوا؛ وإنما المراد أنه لثمرة الاختلاف خلقهم، وهي أمران:

ـ الأول: التكامل في الدنيا[٢٦]؛ فعبر التكامل بين الرجل والمرأة ـ وكل منهما يمثل (الآخر) بالنسبة للثاني ـ تنشأ الأسرة، وعبر التكامل بين الأسر وأفرادها ـ وكل أسرة تمثل (الآخر) بالنسبة للثانية ـ تنشأ القرية، وعبر التكامل بين القرى وأفرادها ـ وكل قرية تمثل (الآخر) بالنسبة للثانية ـ تنشأ الدولة، وعبر التكامل بين الدول وأفرادها ـ وكل دولة تمثل (الآخر) بالنسبة للثانية ـ ينشأ المجتمع الإنساني السعيد؛ وهو أمر مشاهد لا يحتاج منا إلى برهان ولا يمكن أن يكون له إنكار[٢٧].

ـ والثاني: التمحيص للآخرة[٢٨]؛ قال تعالى:[٢٩] "أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ" وقال:[٣٠] "وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ"؛ فالاختلاف هو أساس الاختبار؛ قال تعالى: [٣١]"وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً

---

(٢٦) وهو قائم على الاختلاف العملي (أي في المهارات والإمكانيات).

(٢٧) وفي ذلك يقول المعري:

الناس للناس من بدو ومن حضر*** بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم.

وفي المثل الإنجليزي: .No benefit of a right without a left أي: «لا خير في يمنى بغير يسار».

(٢٨) وهو قائم على الاختلاف بنوعيه: (العملي والنظري). وأقصد بالاختلاف النظري الاختلاف في العقائد الدينية، أو التصورات الفلسفية، أو القيم الأخلاقية، أو العادات الاجتماعية.

(٢٩) العنكبوت: (٢).

(٣٠) الفرقان: (٢٠).

(٣١) المائدة: (٤٨).

وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ". فقوله ليبلوكم أي ليختبركم[٣٢]؛ فالاختلاف بين الرجل والمرأة هو امتحان لهما في غض البصر، وشهوة الفرج..... الخ؛ والاختلاف بين القوي والضعيف هو اختبار للقوي في العدل والرحمة....الخ، وللضعيف في الصبر والجلد .....الخ؛ والاختلاف في الأعراق اختبار في التكبر والتواضع..... الخ، والاختلاف في الأرزاق هو اختبار للغني في الجود..... الخ، وللفقير في الحسد .....الخ.

وقوله: "وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ" أي من هؤلاء الذين فشلوا في اختبار الاختلاف.

إن رفض التعايش مع الآخر تجني ثماره الشائكة كل الأطراف: الرافضة للتعايش والمرفوضة، بشكل أو بآخر، بدرجة أو بأخرى؛ فلقد خسر إبليس، وخسر آدم، عندما فشل التعايش بينهما؛ فأخرجا من الجنة؛ قال تعالى:[٣٣]"قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ".

ونحن في عصرنا هذا وقد أصبح العالم وكأنه قرية صغيرة بفضل وسائل المواصلات والاتصالات الحديثة لم يعد أمام أبناء آدم خيار في التعايش مع بعضهم البعض؛ إن لم يكن لتحقيق المكاسب المحتملة فدرءا للمخاطر المحدقة التي تهدد الحياة على ظهر كوكبنا الأرضي: (ثقب الأوزون، الاحتباس الحراري، تلوث البحار والمحيطات، التصحر، تفشي أسلحة الدمار الشامل، الإرهاب، انتشار الإيدز، ....الخ).

---

(٣٢) انظر القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٢٢٠٨.

(٣٣) طه: ١٢٣.